مقدمة

بقلم الأستاذ محمد خلف الله عميد كلية الآداب

بجامعة الإسكندرية

١

من الميادين التى اتجهت إليها عناية الدارسين فى العصر الحديث ميدان النقد الأدبى عند العرب . وهو بصفة عامة ميدان ذوق الأدب العربى وتحليل نصوصه، وإبراز ما فيه من فن وجمال ، وتعرف الأسس النظرية التى يقوم عليها ذلك الذوق وهذا التحليل .

وقد كانت الخطوة الأولى التى خطتها البحوث الجامعية المصرية فى هذا الميدان العناية بآثار مؤلفى النقد الأدبى من أمثال ابن سلام ، والجاحظ ، والآمدى ، والقاضى الجرجانى ،وأبى هلال العسكرى ، وعبد القاهر الجرجانى ، وغيرهم ممن كتبوا فى طبيعة الشعر والبيان العربى، والموازنة بين الشعراء ، وممن حاولوا تبويب فنون الصناعة الأدبية والكشف عن أسرار البلاغة والجمال فيها .

ثم جاءت الخطوة الثانية وهى البحث فى التيارات الكبرى التى كان لها أثرها فى تطور النقد والبلاغة العربية ، فاتجه بعض الباحثين إلى تعرف ما كان للثقافة اليونانية بصفة عامة ، وكتابى الخطابة والشعر بصفة خاصة - من أثر فى فلسفة الذوق العربى ، واتجه آخرون إلى الدراسات الحديثة فى النفس والجمال والاجتماع ،وما يمكن أن تلقيه من ضوء على طبيعة النقد الأدبى ومنابعه من النفس الإنسانية . ومسالكه إلى المشاعر والقلوب ، واتجه فريق ثالث إلى الدراسات

القرآنية فى مختلف نواحيها من مفردات وغريب ومعان ، ونظم ، وإعجاز ، محاولين أن يفسروا على هدى هذه الدراسات كثيراً من الظواهر التى اختص بها الذوق العربى الإسلامى الذى اتخذ من كتابه السماوى نموذجه الأول ومثله الأعلى فى البيان والتعبير .

وقد كان طبيعياً أن يأخذ قسم اللغة العربية بجامعة الإسكندرية بحظ موفور من هذه النواحى الجديدة فظهرت لأعضاء هيئة التدريس بحوث وكتب فى كل ناحية من هذه النواحى . والكتاب الذى نقدمه هنا للمكتبة العربية الإسلامية حلقة من حلقات تلك الجهود ، للأستاذ محمد زغلول سلام أحد النابهين من خريجى القسم ممن عرفوا فى حياتهم الجامعية بالإخلاص للعلم والجد فى الطلب ، والجمع فى الدراسات العربية بين منطق العلم وذوق الأديب ، والكتاب فى أساسه بحث قدمه صاحبه لجامعة الإسكندرية ، وأحرز به درجة الماجستير مع مرتبة الشرف الأولى . وقد وفق الأستاذ زغلول فى هذا البحث فرسم صورة علمية واضحة للجهود الأولى التى بذلها علماء الإسلام منذ نهاية القرن الثانى إلى القرن الرابع الهجرى فى كشف خصائص الأسلوب القرآنى ، فى لغته ونظمه وطرائق تعبيره ، وفى الاهتداء إلى أسرار بلاغته وإعجازه وتأثيره فى النفوس ، وعلى أساس هذه الصورة العلمية حاول أن يحقق الصلة بين هذه الجهود والجهود التى كان يبذلها هؤلاء العلماء وغيرهم فى بحث خصائص الأدب العربى وأسرار جماله وبلاغته وأن يبين مدى ما كان بين هذه الدراسات وتلك من تأثير متبادل .

٢

وبعد فماذا كانت طبيعة تلك الصلة ومظاهرها خلال العصور ؟

من المعروف تاريخياً أن العرب حين سمعوا القرآن تأثروا به تأثراً شديداً ،

ووقفوا أمام روعة نظمه موقف الإعجاب والذهول والحيرة ، وعبر غير واحد من زعمائهم عن بعض نواحى هذا الموقف فى مثل قول عتبة بن ربيعة حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم الأجزاء الأولى من سورة فصلت ، ثم عاد إلى قومه فسألوه ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال: « ورائى أنى سمعت قولا ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه » . وفى مثل قول الوليد بن المغيرة : « والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة » .

وفى كتب السيرة كثير من أمثال هذه الروايات وكلها تتفق فى بيان ما كان للقرآن من وقع فى قلوب العرب وفى توضيح أثره البلاغى فى نفوسهم .

وقد لجأ بعض المعاندين إذ ذاك إلى المكابرة وقالوا : « لو نشاء لقلنا مثل هذا » فأُمر الرسول بأن يتحداهم أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله ، وأن ينبئهم أنهم لا محالة عاجزون وأنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وقد صدق الله وعده ، وثبت عجز هؤلاء القوم أهل الفصاحة واللسن أمام تحدى هذا البيان العربى الفصيح المنظوم بلغتهم ، والجارى على نهج أساليبهم وصورهم ، وثبت الإعجاز ، وتمت المعجزة ، وصدقت الرسالة .

ظاهرتان إذن وثيقتا الصلة بالحياة الأدبية العربية ، برزتا منذ بدء الدعوة الإسلامية : أولاهما هذا الكتاب العربى المبين الذى تمت له الصدارة على كل ما أنتج العرب وينتجون من أدب وبيان ، والذى هو فى الوقت نفسه دستور الحياة وميزان السلوك والأصل الأول للتشريع . ومن الطبيعى أن تتجه أذهان المسلمين أول ما تتجه إلى العناية بهذا النص ، لشرح ألفاظه وتفسير آياته وتعرف أساليبه وتبين مغازيه واستنباط الأحكام منه . وكثير من هذه النواحى يدخل فى صميم ما نسميه وتسميه الآداب الأخرى « نقد الأدب » وإن كنا تأدباً مع القرآن

الكريم نفضل له اسماً آخر من الأسماء التى أطلقتها الثقافة العربية على هذه الدراسات . ولعل هذا كان من الأسباب التى حدت بعلماء المسلمين ممن ألفوا فى صناعة الأدب إلى العدول عن لفظة « النقد » لما تتضمنه هذه اللفظة من ذكر المحاسن والمساوئ وإصدار الحكم على النص المنقود .

أما الظاهرة الثانية التى جدت مع الإسلام على الحياة الأدبية النقدية عند العرب فهى ظاهرة الإعجاز البلاغى ، وقيام الرسالة السماوية عليه ، وهى ظاهرة لم تعرفها الآداب الأخرى ، ومن الطبيعى كذلك أن يشغل علماء العربية بها ، وأن يستعملوا أدواتهم وعبقرياتهم فى دراستها ، وأن يستعينوا على هذه الدراسة بكل ما يلزمها من أدوات ، وبكل ما يستحدثون من مناهج وثقافات . وظاهر أنها فى صميمها دراسة نقدية من الطراز الأول : فهى تعتمد على بحث الأساليب وتعمق أسرار البلاغة ، والموازنة بين ألوان الكلام الرفيع .

منذ بدء الحياة الإسلامية إذن ، أخذ القرآن مكان الصدارة بصفة كونه النص الأدبى الأول لهذه الأمة ، والكتاب المبين المعجز ، هذا إلى كونه وحى السماء وأساس التشريع والقانون المنظم للسلوك ، والمرشد الموجه إلى معالى الأمور . وإذا اجتمعت هذه الظروف لكتاب فمن الطبيعى أن يصبح محوراً لأهداف الفكر والتأليف فى الأمة ، وينبوعاً للكثير من جداول ثقافتها ، وحافزاً على العناية بكثير من فروع العلم ، التى يمكن أن تعين على فهم هذا الكتاب وإدراك أسراره . والتاريخ يحدثنا أن هذا كان شأن القرآن من الثقافة العربية الإسلامية ، وأن دراسات القرآن كانت العامل الأكبر فى العناية بتدوين اللغة وجمع الشعر ورواية الفصيح ، وبحث طرائق اللغة فى التعبير ، وأساليبها فى البيان .

على هذا الأساس الذى وضعناه مستمدًّا من واقع الأمر ومصادر المعرفة نستطيع أن نسير فى موضوعنا سيراً تاريخيًّا ، فنستعرض موجات التأليف النقدى عند العرب ، ومراحله المهمة خلال العصور ، وما كان لدراسات القرآن من شأن فيها .

٣

ولن نطيل الوقوف عند المرحلة الأولى من حياة الفكر الإسلامى فى القرن الأول الهجرى ومعظم الثانى ، فليس لدينا من مؤلفات تلك المرحلة شىء نستطيع أن نعتمد عليه فى البحث .

ولكن المرحلة التالية التى تبدأ من نهاية القرن الثانى ، وتستمر خلال القرن الثالث ، مرحلة مهمة فى الموضوع لغنى ثروتها فى ميدانها: ففيها ألّف ابن سلام كتابه النقدى فى « طبقات الشعراء » والجاحظ كتابه « البيان والتبيين »، وابن قتيبة كتابه النقدى فى « الشعر والشعراء » ، والمبرد كتابه « الكامل » فى تحليل النصوص العربية وشرحها وموازنتها . هذه الكتب كلها مطبوعة موجودة بين أيدينا ، وهى كتب تتناول نواحى من النقد العربى من جهتيه النظرية والعامية ، وفى كلا فنيه المنظوم والمنثور . ولكن بجانب هذه الثروة المطبوعة ثروة مخطوطة فى الغالب ، لم تصبح فى متناول أيدينا إلا فى السنوات الأخيرة ، وهى جزء من ثروة كبيرة من الدراسات القرآنية فى تلك المرحلة مما أشار إليه الفهرست لابن النديم وغيره من كتب المراجع . وأهم هذه المخطوطات فى موضوعنا « كتاب مجاز القرآن » لأبى عبيده أحد أعلام الرواية الأدبية والمتوفى سنة ٢٠٩ هـ ، وكتاب « معانى القرآن » للفراء أحد أعلام النحو والمتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، وكتاب « مشكل القرآن » لابن قتيبة أحد أعلام الأدب والبيان والمتوفى سنة ٢٧٦ هـ .

أما الكتاب الأول فقد كان محاولة فى تفسير غريب القرآن ، وفى بيان نهجه أو مجازه فى التعبير ووجوه نظمه التى يوجد مثلها فى كلام العرب ، من إضمار الكلمة ، أو الاستغناء عن تتمة الجملة أحياناً أو بإرجاع اللفظ لواحد من اثنين

مشتركين ، أو زيادة حرف ، أو تقديم أو تأخير ، والاستشهاد للكثير من ذلك بأمثلة من كلام العرب .

وأما الفراء فقد عنى بطبيعة الحال بالتوسع فى التخريج النحوى ، وبيان القراءات وأوجه التفسير ، إلى جانب عنايته بالشرح اللغوى ، والتنبيه إلى ظواهر الاستعمال ، والاستشهاد بالشعر .

وأما ابن قتيبة فقد وجه عنايته إلى بيان أسلوب القرآن وجريه على مجازات العرب فى كلامها (ومعناها — كما يقول — طرق القول ومآخذه) من الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار ، والإخفاء والإظهار ، والتعريض والإفصاح ، والكناية ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص ، وما إلى ذلك من هذه الظواهر . وقد جعل ابن قتيبة مفتاح حديثه فى الموضوع كون القرآن جامعاً لكثير من المعنى فى القليل من اللفظ ، وذلك معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوتيت جوامع الكلم » .. وبعد أن شرح ابن قتيبة هذا مطبقاً على بعض الآيات ، قال : « وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب ، وافتنانها فى الأساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات ، فإنه ليس فى جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة واتساع المجال ما أوتيته العرب ، خصيصى من الله لما أرهصه فى الرسول صلى الله عليه وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب ، فجعله علمه كما جعل علم كل نبى من المرسلين من أشبه الأمور به فى زمانه المبعث فيه » .

هذه وأشباهها من كتب الدراسات القرآنية فى تلك المرحلة كتب فى صميم النقد ، فهى تحاول فهم النص وتعرف ظواهر الاستعمال اللغوى والتركيبى فيه ، والإشارة إلى ما فيه من وجوه المجاز . وظاهر أنه فى الوقت الذى شغلت فيه الكتب النقدية الأخرى بترتيب طبقات الشعراء وبيان خصائصهم ، وشىء عن بيئاتهم

وببحث ظاهرة البيان عامة والخطابة بصفة خاصة ، وذكر ما يعرض لها من مظاهر الحسن والقبح — فى هذا الوقت شغلت كتب الدراسات القرآنية ببحث ظواهر اللغة وفقهها وطرق الأداء ، ونظام الجملة العربية فى إعرابها وتركيبها ، وما فى الكلام العربى عامة من أفانين التصوير .

هذا تياران كبيران فى النقد العربى ، بينهما شىء كثير من التداخل والتعاون والامتزاج ، وسنتابعهما إلى نهاية مجراهما لنرى أيمتزجان فيؤلفان جدولا واحداً أم يتضخم أحدهما على حساب الآخر ، أم يثبت أحدهما ويكاد الآخر يختفى فى مسارب الزمان ؟

٤

إذا كانت المرحلة التى لخصناها الآن هى مرحلة النشأة والفتوة فى التأليف النقدى ، فإن المرحلة التالية — وهى القرن الرابع الهجرى — كانت مرحلة الشباب والتخصص الحقيقى فى هذه الدراسات وقد خلفت لنا كتباً يحق للفكر العربى الإسلامى أن يعتز بها اعتزازاً كبيراً ، ففى هذه المرحلة اتسع التأليف فى تراجم الشعراء وخصائص فنهم ، حتى كان من ذلك كتاب الأغانى لأبى الفرج ، المتوفى سنة ٣٥٦ هـ . واتسعت دراسات الموازنة بين الشعراء المتناظرين والفصل فيما يثار حول شاعر بعينه من قضايا جدلية ونقدية ، فكان من ذلك كتاب الموازنة بين الطائيين أبى تمام والبحترى لأبى القاسم الآمدى ، المتوفى سنة ٣٧١ هـ . وكتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ . وظهر أثر الاحتكاك بالدراسات اليونانية فى الموضوع فى كتب قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ هـ فى نقد الشعر ونقد النثر .

وإذ كانت هذه الدراسات النقدية المتخصصة تمضى فى طريقها ، كان هناك نفر من علماء الدراسات الإسلامية يعكفون على إعجاز القرآن ، يفصلون القول فيه ويشرحون جهاته . ويهمنا من جهودهم فى هذا الموضوع جهة البلاغة ، فمن كتبوا فيها الإمام النحوى المتكلم أبو الحسن على بن عيسى الرمانى ، المتوفى سنة ٣٧٤ هـ فى رسالته « النكت فى إعجاز القرآن العظيم » وفيها عرف البلاغة بأنها إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ ، وقرر أن أعلاها طبقة فى الحسن بلاغة القرآن : وأعلى طبقات البلاغة « معجز للعرب والعجم ، والبلاغة على عشرة أقسام الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان » . ثم شرحها باباً باباً مستشهداً بآيات الذكر الحكيم . ومن أئمة هذا الميدان شيخ السنة ولسان الأمة القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ وصاحب كتاب «إعجاز القرآن». وقد بنى الباقلانى فكرته على أن نظم القرآن -- على تصرف وجوهه -- واختلاف مذاهبه -- خارج عن المعهود من نظام الأدب العربى ، وليس للعرب نتاج أدبى بهذا الطول وعلى هذا القدر -- مشتمل على ما اشتمل عليه القرآن من تصرف بديع وتناسب فى البلاغة . وقد تصرف القرآن فى وجوه القول من قصص ومواعظ واحتجاج وأحكام ووعد ووعيد ، إلى غير ذلك من الوجوه دون أن يكون فى تأليفه تفاوت أو نزول عن المرتبة العليا . ولن تجد لأحد من البلغاء -- مهما علت منزلته -- أدباً لا تفاوت فيه . وما من شاعر فحل خلا شعره من ضعف هنا وتكلف هناك . وكثير من فرسان البيان يجيدون فى ميدان ويقصرون فى آخر . هذا والقرآن كتاب تشريع جديد يتخير الألفاظ للمعانى المبتكرة والأسباب المستحدثة ، لا يسبح فى شىء من ذلك على منوال سابق . وقد يعيننا على إدراك بعض أسرار الإعجاز أن ندرس الخصائص البلاغية للغة العربية فنحن واجدون منها فى القرآن أنماطاً تهز وتعجب . غير أن هذه الخصائص البلاغية وحدها لا تفسر الإعجاز بل ترشد وتساعد فحسب . وقد رسم الباقلانى طريق السير لمن

يريدون رياضة عقولهم على التعرض لنفحات الإعجاز . وفى سبيل هذه الغاية صور الباقلانى النتائج التى وصلت إليها جهود مدارس النقد الأدبى إلى عصره وشرح هذه النتائج ومثل لها من القرآن ومن مأثور الأدب العربى .

٥

هذه المرحلة المتخصصة — إذن — استمرار لما قبلها وباوغ بالبحوث النقدية إلى غاياتها . وقد قامت بحوث الإعجاز بدورها فأفادت من نقد الأدب وأفاد النقد منها .

وسنجاوزها الآن إلى مرحلة أخرى لعل أصدق وصف لها أنها مرحلة الكتب الجامعة الشاملة فى الموضوع . وأحب أن أنبه إلى أن المراحل التى نتناولها هنا ليست زمانية بالضبط بل تطورية تتداخل إحداها فى الأخرى ، غير أنها على الإجمال حلقات فى سلسلة حياة هذا العلم .

لعل من أوائل الكتب الجامعة فى هذا الموضوع كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ فى القرن الثالث الهجرى . وقد سبقت الإشارة إليه . وثانى كتاب مهم فى هذه الناحية هو كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ، المتوفى سنة ٣٩٥ هـ أى فى نهاية القرن الرابع ، وهذا الكتاب ينقد ما فى كتاب الجاحظ من نقص وعدم ترتيب ، ويحاول أن يجمع أطراف الموضوع فى بحث منظم ، يبدأ فيه بمناقشة التصورات العامة من بلاغة وفصاحة ، ويقرر فيه الموازين والأقيسة التى يقاس بها جيد الكلام من رديئه ، ويناقش فيه الظواهر البيانية العامة التى عرفها الفكر العربى الإسلامى من زمن متقدم ، كالإيجاز والإطناب والتشبيه وحسن

الأخذ وحسن التأليف وما إليها . ثم يشرح أبواب البديع التى جمع ابن المعتز — من قبل — طائفة منها ، وزاد عليها أبو هلال وغيره أبواباً أخرى .

والظاهرة التى تهمنا ملاحظتها هنا ، وستصادفنا فى معظم كتب هذه المرحلة وأحياناً تبدو لنا مسيطرة على بعض هذه الكتب موجهة لمباحثها ، هى أن فكرة إعجاز القرآن تأخذ مكانها فى هذه البحوث النقدية باعتبارها غاية حيناً وثمرة حيناً آخر . يقول أبو هلال العسكرى فى أول فقرة من كتابه : « اعلم علمك الله الخير ، أن أحق العلوم بالتعلم بعد معرفة الله جل ثناؤه علم البلاغة ومعرفة الفصاحة ، الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى ، الناطق بالحق الهادى إلى سبيل الرشد ، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة . . وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خص الله به كتابه من حسن التأليف وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف . . إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها ، وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه وذلك غير لائق بالعربى المثقف » .

وطريقة أبى هلال فى أبواب كتابه أن يشرح التصور الأساسى فى كل باب ، ثم يتبع ذلك الشرح بنماذج من جيد الكلام ، بادئاً بإمام النماذج وهو القرآن .

وما عمله أبو هلال فى القرن الرابع عمل مثله فى القرن الخامس ابن سنان الخفاجى ، المتوفى سنة ٤٦٦ هـ فى كتابه « سر الفصاحة » . إذ بين أن معرفة حقيقة الفصاحة تفيد فى ناحيتين ، فى العلوم الأدبية إذ بها يعرف نظم الكلام على اختلاف تأليفه ، ونقده ، ومعرفة ما يختار منه مما يكره ، وفى العلوم الشرعية إذ أن المعجز الدال على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن ، سواء أذهبنا مذهب القائلين بأنه خرق العادة بفصاحته ، أم مذهب القائلين بالصرفة ، فلا مندوحة لنا فى الوجهين على بيان ماهية الفصاحة ، لنقطع فى الأول بأن فصاحة

القرآن خرجت عن مقدور البشر ، وفى الثانى بأنها كانت فى مقدورهم ومن جنس فصاحتهم . وتحقيقاً لهاتين الفائدتين بحث ابن سنان بحثه الشامل فى أصوات اللغة وفى فصاحة المفرد والمركب . وفى بلاغة نعوت الكلام البليغ .

وفى حوالى الوقت الذى كان ابن سنان يؤلف فيه كتابه ، كان هناك إمام آخر معاصر يحاول أن يبحث خصائص نظم الكلام وأسرار بلاغته ، ويضع فى كلتا الناحيتين نظرية جامعة يقررها ويشرحها ويطبقها ، ويجيب على ما قد يوجه إليها من اعتراضات . ذلك هو الإمام عبد القاهر الجرجانى ، المتوفى سنة ٤٧١ هـ

ومما له مغزاه ودلالته فى موضوعنا أن عبد القاهر سمى أكبر كتابيه « دلائل الإعجاز » ، وبين أن إجماع المسلمين قد اتفق على أن القرآن معجز بنظمه ، فطريق الوصول إلى إدراك هذا الإعجاز — إذن — هو معرفة حقيقة البلاغة والفصاحة فى النظم ، وقد خاض الناس فيهما طويلا إلى أيامه ، ولكنهم — فى رأيه — وقفوا دون الغاية ، ولم ينفذوا إلى الأعماق ولم يسلكوا منهجاً علمياً دقيقاً . وهذا هو النقص الذى حاول عبد القاهر أن يسده ، ففصل القول ووضع يده على الجوهر وحلل من النماذج القرآنية والأدبية ما شاءت له عبقريته الفنية العلمية أن يحلل ، وانتهى فى هذا الكتاب إلى أن بلاغة الكلام ترجع إلى خصائص فى نظمه . وأكمل هذه النظرية بنظرية أخرى فى كتاب « أسرار البلاغة » خلاصتها أن جمال الكلام يرجع إلى مبلغ تأثيره فى النفوس . وهذان الكتابان هما الأساس الذى قامت عليه المناهج البلاغية فى عهودها المتأخرة .

ويصادفنا فى القرن السادس الهجرى علم من أولئك الأعلام عالج موضوع الإعجاز ، ولكن من طريق عملى آخر هو طريق التفسير — ذلك هو الإمام الزمخشرى ، المتوفى سنة ٥٣٨ هـ . كان الزمخشرى يذهب إلى أن الله قد خص العرب بالنصيب الأوفر من سحر البيان ، فتصرفوا فى ألوان القول المختلفة ، وكأنه تعالى قد مخض هذا البيان وألقى زبدته على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ،

وقد أنزل عليه لتأييد رسالته كتاباً ساطعاً ببيانه قاطعاً ببرهانه ، وجعله مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية ، مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية ، معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه الزمان. والطريق إلى إدراك أسرار هذا الكتاب هو علم التفسير الذى لا يستطيع الغوص على حقائقه إلا رجل برع فى علمين ضروريين للدرس القرآن هما علم المعانى وعلم البيان . ونحن هنا فى الحقيقة تجاه جدول آخر من جداول الدراسات القرآنية هو التفسير الذى كان بدؤه الحقيقى موسوعة الطبرى الكبرى فى ثلاثين جزءاً ، ولكننا وقفنا وقفتنا عند الزمخشرى فى القرن السادس لنسجل هذا المنزع البلاغى فى التفسير كما سجلناه فى الإعجاز ، ولننبه إلى ناحية أخرى من نواحى تأثير الدراسات القرآنية فى نهضة بحوث البلاغة .

وفى أواخر القرن السادس وأوائل السابع الهجرى يبرز ضياء الدين بن الأثير ، المتوفى سنة ٦٣٧ هـ بكتابه المشهور « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » وهو كتاب جامع حقاً لمسائل هذا العلم ، حافل بالطريف من التحليل الفنى للنماذج الأدبية ، وفيه كثير من النظرات الأصيلة والملاحظات المبتكرة ، وهو فى الوقت نفسه كتاب ممتع فى الدراسات القرآنية : فقد كان القرآن العامل الأكبر فى أدب ابن الأثير وفنه ودراساته النقدية ، وقد عثر هو فى غضونه — كما يقول — على أبواب من البيان لم يتعرض لها السابقون ، وهداه الله من طريقه إلى أشياء جديدة بلغ بها مرتبة الاجتهاد . وهو يعد القرآن أول الأدوات التى لا بد لمن ركب الله فيه طبعاً قابلاً للأدب أن يستعين بها : فإن صاحب هذه الصناعة يستطيع — إذا كان حافظاً للقرآن أن يضمن كلامه بالآيات فى أماكنها اللائقة بها ، فيكسبه بذلك فخامة وجزالة ورونقاً . ويستطيع — إذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة فى تأليف القرآن أن يتخذه بحراً يستخرج منه الدرر والجواهر ويودعهما مطاوى كلامه . وقد وجد ابن الأثير بالتجربة أن أعون الأشياء على النبوغ فى الكتابة حل آيات القرآن الكريم والأخبار النبوية وحل الأبيات الشعرية

وعلى هذا كان من الطبيعى أن يتأثر ابن الأثير بالقرآن فى منهجه النقدى كما تأثر به فى فنه الكتابى . وكتابه « المثل السائر » ثمرة مباركة من ثمار ذلك التأثر .

بقى هنا من هذه الكتب الجامعة ذات الأهمية فى موضوعنا كتاب أخير ألفه الإمام يحيى بن حمزة العلوى اليمنى ، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ . والكتاب دال بعنوانه كما هو دال بمنهجه ومادته على الفكرة التى نحاول عرضها هنا. ذلك أن عنوان الكتاب هو « الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز » وقد أخبر المؤلف فى مقدمته أن الذى بعثه على تأليفه رغبة جماعة من إخوانه بعد أن قرأوا عليه كتاب الكشاف للزمخشرى ، فى أن يملى عليهم كتاباً جامعاً لمباحث الألفاظ والمعانى . وقد قسم صاحب الطراز كتابه ثلاثة فنون : الفن الأول للمقدمات الضرورية فى الموضوع ، والفن الثانى لبحوث المعانى والبيان، والفن الثالث يذكر فيه المؤلف فصاحة القرآن العظيم وأنه قد وصل الغاية التى لا غاية فوقها ، وأن شيئاً من الكلام وإن عظم دخوله فى البلاغة والفصاحة فإنه لا يدانيه ولا يماثله، ثم يذكر كون القرآن معجزاً للخلق ووجه هذا الإعجاز وأقاويل العلماء فى ذلك ، مظهراً منها الوجه المختار فى الموضوع .

٦

هذه هى الخطوط الكبرى لتطور الصلة بين دراسات القرآن ودراسات النقد الأدبى خلال العصور الحصبة من تاريخ الفكر العربى . وقد كان من حظ قسم اللغة العربية بجامعة الإسكندرية أن يوليها شطراً كبيراً من عنايته فى العشر السنوات الأخيرة ، وأن يوجه إليها أنظار أبنائه وخريجيه ليتخذوا من معضلاتها ميادين لبحوثهم ورسائلهم ، وليأخذوا بنصيبهم من دراسة مكتبتها ونشر مخطوطاتها ، وكان الأستاذ زغلول فى طليعة من استجابوا لهذا التوجيه . فلم يكد ينتهى من

مرحلة الطلب حتى كان قد حدد ميدان بحثه للماجستير ، وشمر عن ساعد الجد فى البحث عن المراجع والتنقيب عن المخطوطات ، وخرج من بحثه بنتائج ستكون لها آثارها فى تقدم المعرفة النقدية ، وفى تصحيح وجهة النظر التى كانت سائدة فى دراسات النقد قبل أن يهتم الباحثون بتيار من أهم تياراتها وهو أسلوب القرآن.

محمد خلف الله

بولكلى - رمل الإسكندرية فى ١٩ رمضان سنة ١٣٧٢ هـ
١ يونيو سنة ١٩٥٢ م

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

لم يحظ النقد ودراساته فى مصر فى مطلع هذا القرن بكثير من عناية علماء العربية وجهودهم ، وكان ميدانه تشغله البلاغة وعلومها . إذ كانت تدرس فى الأزهر ودار العلوم وغيرهما من سائر المدارس . وجاء الأستاذ الإمام محمد عبده فخطا بالدراسات النقدية وبالبلاغة خطوة جديدة ، إذ تناول كتابى عبد القاهر الجرجانى « أسرار البلاغة » ، و « دلائل الإعجاز » بالدرس والشرح ، وكان اتجاهه هذا تجديداً ، ورجوعاً بالبلاغة إلى أصولها الأولى ، وهى لا تزال طرية غضة قبل أن تبلغ مرحلة السكاكى ، وشراحه ومختصريه .

وخطت دراسات النقد خطوة جديدة عند ما شاركت الجامعة المصرية بجهود باحثيها فى الميدان ، وكان لمناهج الدراسة الأدبية التى تأثرتها ، ونقلها أساتذتها عن الغرب أثرها فى توجيه دراسات النقد . فانتقلت بعناية الباحثين من الدراسة الشكلية المقصورة على مجرد الدرس ، والشرح للسكاكى ، وتلخيص الخطيب وشرح السعد وحواشيه إلى العناية بنواح أكثر شمولا ، وأوسع مجالا ، والالتفات إلى التراث القديم فى النقد ، ومحاولة دراسته وعرضه عرضاً جديداً .

واتجهت جهود بعض الباحثين إلى التأريخ للنقد العربى والبلاغة منذ نشأتهما حتى مرحلة النضج ، وممن اضطلع بتاريخ النقد طه إبراهيم فى كتابه إذ

استعرض النقد العربى منذ نشأته حتى القرن الرابع . وحاول أحمد مصطفى المراغى التاريخ للبلاغة ورجالها .

واكتفى بعض الباحثين بعصر ينحصر فى قرن أو قرنين من الزمان ، يتعرض لحال النقد فيهما مع الترجمة للنقاد ، ومن هؤلاء محمد مندور فى النقد المنهجى وطه حسين فى بحث البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر[1] ، ومما يأتى فى هذا الاتجاه أيضاً دراسة الباحث الأمريكى فون جرينباوم : "Arabic Literary Criticism in the 10 th. Cen. A. D. by Gustave von Grunebaum".

وحاول بعض الباحثين التعرض للظواهر الفنية المختلفة فى الأدب شعره ونثره والتاريخ لها فى دراسة تطورية ، كما فعل ذلك زكى مبارك فى « النثر الفنى »[2] وشوقى ضيف فى « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ، و « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » .

ووجه بعضهم عنايته إلى الدراسات النقدية يحاول أن يجدد ويمزج بعض ما استحدث فى الغرب من مناهج على الأدب العربى ، مستعيناً بالدراسات القديمة متبعاً أصول الذوق العربى وضرورات التعبير فى العربية ، ومن بين هذه الدراسات « الأسلوب » ، « وأصول النقد » لأحمد الشايب ، و « الأصول الفنية للأدب » لعبد الحميد حسن ، و « النقد الأدبى » لأحمد أمين ، وغيرهم .

وخلصت جهود الباحثين إلى العناية بدراسة فكرة بعينها ، والتنبيه إلى ظاهرة فى الأدب والنقد مع الانتفاع بما نجم من الدراسات الإنسانية المستحدثة ، كعلم النفس ، ودراسات الجمال ، والفن ، وعلم الذوق ، ودراسات النقد العربية ،

(١) فى مقدمة نقد النثر ط . لجنة التأليف .
(٢) طبع دار الكتب / ١٩٣٤ م

مثل كتاب « من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده » لمحمد خلف الله ، و « دراسات فى الأدب الإسلامى » له ، ثم دراسات فى علم النفس الأدبى لحامد عبد القادر ، و « مقال بين الأدب وعلم النفس » لأمين الخولى . . . إلخ .

وقد حاول بعض الباحثين — متأثرين بدراساتهم فى الآداب القديمة — واليونانية على الخصوص — دراسة النقد ، والبلاغة العربية على ضوء تلك الدراسات ، مستعينين بها لتقصى آثار الهيلينية فى النقد والبلاغة العربية . كما فعل طه حسين فى مقدمة نقد النثر ، وإبراهيم سلامة فى « بلاغة أرسطو بين العرب واليونان » ، وأمين الخولى فى مقال « البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها » ، كما حاول محمد خلف الله أن يتعرض للتراجم القديمة لكتاب الشعر ويتناولها بالنقد والدراسة .

وقام أمين الخولى بالدعوة إلى التجديد فى مناهج البلاغة ، على اعتبار أنها فن القول ، وقد استدعى هذا الاتجاه إلى دراسة البلاغة العربية دراسة تاريخية علمية ، مع تشريح ، ومناقشة لآراء البلاغيين وقيمتها النقدية ، ثم وضع المقاييس القديمة إلى جانب ما نجم من مقاييس النقد الحديث .

وقد حظى القرآن والدراسات القرآنية بنصيب كبير فى ميدان النقد ، فقد تعرض النقاد والأدباء لأسلوب القرآن على ضوء مناهج البحث الفنى .

أما دراسات القرآن القديمة ، فقد أولاها قسم اللغة العربية بكلية الآداب اهتمامه . وقد كان القرآن عاملاً هامًّا فى نشأة النقد العربى وتطوره ، لا يمكن تجاهله ، ولا إنكار أثره ، ذلك أنه نص عربى رائع ، وأنه معجزة النبى القولية ، وكان مدار اهتمام علماء العربية ، يتدارسون أسلوبه ، ويحاولون الوصول إلى أسرار روعته البلاغية ، وهكذا أفاد القرآن فى ميدان النقد .

واهتم أستاذنا محمد خلف الله بالتنبيه إلى أثر الدراسات القرآنية فى النقد

الأدبي وتطوره ، فحاضر فى الموضوع طلبته بكلية الآداب ، وحاضر فيه فى محافل العلم ، فألقى محاضرة بنادى دار العلوم بالقاهرة عن « دراسة القرآن وتطور النقد الأدبى » ، وفى جمعية الشبان المسلمين بالإسكندرية عن « ابن الأثير وعلم الذوق الأدبى » ، وفى المذياع عن « ابن قتيبه ومشكل القرآن » ، كما كتب فى مجلة « الثقافة » عن « نماذج من المحاولات الأولى فى دراسات القرآن » وقدم إلى مؤتمر المستشرقين المنعقد بإستانبول عام ١٩٥١ بحثاً عن : « الدراسات القرآنية كعامل هام فى تطور النقد العربى » .

وجعل جماعة الطلاب فى الدراسات العليا هذا الموضوع ميداناً لدراساتهم ، وتناولوه من جوانب متعددة ، وهذا البحث أحد تلك الدراسات ، وهو يتناول الموضوع فى دراسة تطورية تحليلية ، مع التركيز على القرنين الثالث والرابع ، والإفادة من مجموعة من المراجع الهامة التى لا تزال مخطوطة ، وبيان الجداول الأولى التى صبت فى الدراسات القرآنية وأثرت فى النقد ، والظواهر المختلفة التى نشأت وتفاعلت وتطورت .

واقتضت طبيعة البحث تناول الموضوع تناولا تاريخيًّا ، يبدأ بالمراحل الأولى للتفسير لتبيين الموارد التى كان يعتمد عليها ، والخروج من ذلك إلى جداول كانت تمده ، ونخص منها جدول اللغة والشعر .

وهكذا يبدأ الفصل الأول متناولاً المراحل الأولى للتفسير ، ثم ينتهى إلى الفصلين الثانى والثالث ، فى الدراسات اللغوية لتفسير القرآن ، والدراسات البيانية لأسلوبه .

وتناولنا بالتحليل « مجاز القرآن » لأبى عبيدة كأول كتاب يصل إلى أيدينا من تلك المرحلة الأولى ، وقد أشرنا فى تحليل الكتاب إلى ما كان يعمد إليه أبو عبيدة أحياناً من توضيح بعض النواحى الخافية ، أو الدقيقة فى أسلوب القرآن ، وهكذا كانت دراسته للمجاز فى أسلوب القرآن مقدمة لبحوث المتأخرين فى المجاز كعنصر هام من عناصر البيان .

وأشرنا فى تحليل كتاب « معانى القرآن » للفراء إلى بعض المسائل اللغوية ، والأسلوبية التى كانت تشغل بال اللغويين وعلماء القرآن والبيان فى ذلك الوقت ، مع غلبة الطابع النحوى على الفراء .

ثم انتهينا إلى دراسات المعتزلة وأهل السنة فى بيان القرآن ، وما كان يسيطر على أفكارهم فى مجاز القرآن ومتشابهه ، من معتقدات تتصل بأصول العقيدة . وأشرنا فى مقدمة دراسات الجاحظ لبيان القرآن إلى رأى المعتزلة فى مجاز القرآن وصوره البيانية ، كما أشرنا إلى آراء أهل السنة فى مقدمة الكلام عن كتاب « مشكل القرآن لابن قتيبة » .

ونبهنا إلى أن دراسات الجاحظ ، وابن قتيبة لبيان القرآن تتقدمان خطوة أخرى بالنقد العربى ، إذ نلاحظ عندهما التبويب لفنون القول ، وطرقه ، وهو ما عبر به ابن قتيبة عند كلامه عن المجاز .

وانتهى الباب الأول فى الدراسات القرآنية فى القرن الثالث ، وبدأ الباب الثانى وفيه تعرضنا للدراسات النقدية الخالصة — خارج نطاق القرآن — فى اللغة والشعر وحاولنا فيها فى دراسة استقصائية — إلى حد ما — تبين الأثر القرآنى وتلمسه فى مواطنه .

ولم تفتنا الإشارة إلى ظهور البديع كمذهب فنى غلب على الأدب والنقد فى القرن الثالث ، وأشرنا إلى صلة ذلك البديع بالدراسات القرآنية ، إلى جانب ما اعتاد الباحثون الإشارة إليه من تأثر البديع ببلاغة أرسطو فى كتابى الخطابة والشعر .

وبدأ القرن الرابع ، وأفردنا فيه للدراسات القرآنية باباً هو الباب الثالث ، أشرنا فيه إلى تطور الدراسات القرآنية إلى دراسات إعجاز القرآن ، وظهور الطابع النقدى ، والدراسات البلاغية فيها بشكل واضح ، ولم نهمل الإشارة إلى تطور الفنون البيانية ، أو البلاغية فيها ، وتأثرها بدراسات السابقين سواء فى القرآن أو البيان العربى عامة .

وفى الباب الرابع تكلمنا عن البديع والبلاغة كمذهب له شأنه فى النقد فى القرن الرابع ، متناولين أهم ما يمت إلى موضوعنا بسبب ،وتبرز فيه آثار القرآن ودراساته السابقة .

وتعرضنا للدراسات الشعرية ، أو النقد الشعرى الذى تحرر من البلاغة والبديع ، نقد النصوص نقداً موضوعياً يكشف عن محاسنها ومقابحها اعتماداً على مقاييس ليست كلها بلاغية ، بل للذوق والطبع العربى نصيب كبير فيها .

ونبهنا هنا إلى أثر القرآن فى تربية الذوق العربى وصقله ، ومشاركته فى قيام مذهب « طريقة العرب » معارضاً لمذهب « البديع والبلاغة » المتأثر بأرسطو . وهكذا كان عماد طريقة العرب بعض الأصول التى تجمعت فى دراسات القرآن والشعر ، والبيان السابقة ، ومحضتها الأفكار فكان زبدتها ما سموه « عمود الشعر ».

وفى خلاصة البحث جمعنا رءوس الموضوعات فى بحوث السابقين من علماء القرآن والبيان الذين تعرضنا لهم ، والأصول الفنية فى النقد التى نجمت عندهم فى دراسات القرآن خاصة ،وبيان قيمتها من الوجهة الفنية والجمالية اعتماداً على مقاييس النقد وعلم الجمال ، والذوق حديثاً .